الفصل السادس: السّلام في الطبيعة

إنّ دراسة الكون تظهـر أنّ نظامه الممتدّ يستند كليًّا علـى مبدأ السّلام؛ فهناك عدد لا يحصى من الأجرام السماويّة فـي أنحاء الكون جميعها، في حركة دائمة من غير أيّ تصادم يحـدث بينها. وكلّ مـدار، وبدقّة متناهية يمضي داخل مجاله الخاصّ به، من غير التعدّي على أيّ مدار آخرَ، وهذا هو السبب، في عالم الطبيعة، في عدم حدوث أيّ اشتباك أو مواجهة.

إنّ ثقافة الكون هي ثقافة السّلام، وهي أمـر مرغوب فيه للإنسان أيضًا. وعلى الإنسان أن يعتمد هذا المبدأ الشامل في حياته. وبنبذه طريق المواجهة، يجب عليه أن يختار طريق السّلام.

وبسبب الالتزام بثقافة السّلام هـذه فإنّ الكون يسير منذ بلايين السنين من غير أيّ تصادم قـد يعكّر نظامه. وهذا يعنـي أنّ ثقافة العنف لو سادت بدلاً من ذلك، فسنجد أنّ مختلف مكوّنات هذا الكون ستتصادم وتتدمّر، ولن يكون الكون لمدّة طويلة صالحًا للسكن.

إنّ الخالق الذي جلب هذا الكـون إلى الوجود قد خلق البشـر أيضًا، وقد كانت رغبته في أنّه على الإنسان أنْ يختار ثقافة السّلام التي أنشئت في هذا المجال واسع النطاق. ومعَ ذلك، هناك فرق بين الإنسان والكون؛ فقد فرضت ثقافة السّلام هذه على الكون بقوى الطبيعة، لكنّ الإنسان قد مُنح حريّة العمل بنهج السّلام. ولذلك.

ينبغي على البشر إنشاء هذه الثقافة بجهود واعية وطوعيّة من الإرادة؛ كي يسود الانسجام حياتهم.

نظام الطبيعة

لقد تمّ وضع النظام في هذه الأرض، التي يقطنها الإنسان، منذ اللحظة الأولى لإنشائها. وهكذا، فقد تمّ ترتيب كلّ شيء وَفقًا لخطّة في صالح البشريّة. وهذا يعني أنّ أيّ شيء يقوم به الإنسان على هذه الأرض، ينبغي القيام به من غير أيّ تغيير لخطّة الطبيعة. فلو عبث الإنسان معها ولو بأدنى الدرجات، فإنّ هذا سيؤدّي إلى انهيار النظام الطبيعيّ الموضوع من الخالق وَفقًا لترتيب معيّن. ونتيجة لذلك، سوف ينتشر الفساد في كلّ مكان.

لقد حصلت في عالمنا أحداث لا تُعَدّ ولا تُحصى، يحكمها قانون الطبيعة، على سبيل المثال: استمرار دوران الأرض، وتلقّي الضوء من الشمس، وهبوب الرياح، وبدء هطل الأمطار، وتدفّق مياه الأنهار، ونموّ النباتات والأشجار، وما إلى ذلك. إنّ هذه العمليّات جميعها من هذا النوع تستمرّ ليلاً ونهارًا، والأمر المبهر هو كيف أنّها تحدث بطريقة سلميّة للغاية، فلا وجود للعنف، ولا للصدام، ولا للمواجهة.

وكون هذه هي الطريقة الطبيعيّة للإصلاح، فينبغي على البشر أنْ يتّبعوا طريقة الطبيعة هذه، نابذين العنف والمواجهة.

ولا ينبغي لهـم أنْ يتصرّفوا كالفرد العنيف الذي يعتمـد على أشياء، مثل السيوف والبنادق أو القنابل، ولكن ينبغي أن يستمـدّوا قوّتهم من الصّفات البشريّة النبيلة، من مثـل: الصّبر والتحمّل، وتجنّب الصّـراع، والاستعداد المتبادل للتعديل، وما إلى ذلك. إنّ هـذه الاستراتيجيّات من شخص محبّ للسلام هي في توافق معَ الأبديّة والحتميّـة لقوانين الطبيعة، وأولئك الذين يعارضونها هم وبالتأكيد سيعملون على خلق اضطرابات كبيرة في كلّ مكان، ولن يكونوا قادرين على إنشاء نظام صالح.

قانون التحوّل

يحتاج جسم الإنسان إلى الدّم في نظامه للبقاء على قيد الحياة، ولكنّنا لا نستطيع تحصيل الدّم الجاهز في هذا العالم، لهذا فإننا بحاجة إلى نظام نحصل فيه على الدّم من اللادم، بعد المرور في عمليّة طبيعيّة معيّنة، ومن غير هذه العمليّة لن نتمكن من تأمين الدّم لأنفسنا.

وكما أنّ الدمّ ضروريّ لوجودنا الماديّ، فإنّ السّلام ضروريّ أيضًا لبقائنا الاجتماعيّ، ولكننا لا نستطيع العثور على سلام جاهز في هذا العالم، ولذلك فإنه ينبغي لنا أنْ نعمل على تطوير عمليّة تحوّل اللاسلام إلى سلام. وعمليّة صنع السّلام هذه هي ما عبّر عنها يسوع المسيح قائلاً:

«أعطوا ما لقيصر لقيصر، وما لله لله» (لوقا، 20:25)

هذا يعني أنّه، ومن خلال تجنّب الصدام وجهًا لوجه في ظلّ ظروف غير مواتية، فإنّنا نكسب الوقت بهذا لتحقيق أهدافنا.

ويمكن التعبير عـن هذه الصيغـة في سيـاق السّلام هكـذا: تحمّل حالة اللاسلام حتـى تتمكّن من الوصـول إلى حالة من السّـلام، وهذه هي فقط طريقة تحويل اللاسـلام إلى السّلام في هـذا العالم؛ فما مـن طريق آخرَ للسلام.

إنّ نظام الطبيعة بأكمله يعتمد على مبدأ التحويل، وكلّ شيء في عالمنا قد خضع في مرحلة ما لعمليّة تحويل. فالمياه، وقبل تحويلها، كانت موجودة على شكل غازين مختلفين؛ فوَفقًا لقانون الطبيعة، فإنّ اللاماء قد تمّ تحويله إلى ماء، وتنطبق هذه العمليّة على الظواهر الأخرى جميعها في العالم.

دعونا ننظر في مثال آخر ألا وهو الشجرة؛ إذ يستحيل أن نرى الشجرة وقد وقفت أمامنا فجأة على شكلها المتطوّر النهائيّ؛ فهناك عمليّة الطبيعة، التي من خلالها يتمّ تحويل البذرة ومرورًا بمراحل إلى شجـرة. يمكننا أنْ نقول إنّ هناك عمليّة في الطبيعة تحوّل اللاشجرة إلى شجرة، وبعدها فقط تقف الشجرة على الأرض مختالة بعظمة شكلها.

وبالمثل، فإنّ البقرة لا تعطي الحليب إلا بعد أنْ تتمّ عمليّة طبيعيّة للتحوّل داخلها. ويبدو الأمر كما لو أنّ البقرة مصنع للطبيعة، الذي يحوّل اللاحليب إلى الحليب، هذا السائل المغذي.

وبطريقة مماثلة، فإنّ غذاء الإنسان الذي يحتاج إليه للحصول على قوّته لا يأتي إلى حيّز الوجود إلا إذا تمّ تحويل غير الصالح للأكل إلى صالح للأكل في مصنع الطبيعة، لهذا يحوّل الجهاز الهضمي للإنسان الصالح للأكل من هذه الموادّ إلى لحم ودم.

الفصل الثامن: السّلام في الديانة الإسلاميّة

إنّ مسألة السّلام تندرج أيضًا في إطار هذا القانون العامّ للطبيعة؛ فالسّلام أمر حيويّ لوجودنا الاجتماعيّ، ولكـن لا يمكننا العثور على سلام جاهز في هذا العالم. ولذلك، وعلى المنوال نفسه، فإنّ السّلام لا يمكن الحصول عليه إلا من قِبل أولئك الأفـراد -أو المجتمع- الذين لديهـم القدرة على تحويل اللاسلام إلى سلام. ويمكن أنْ نجد السّلام فقط إذا أظهرنا هذه المقدرة.

والآن، دعونا نرى كيـف يمكن تحويل هذا اللاسلام إلـى السّلام. ويمكن تلخيص هذه العمليّة في إعطاء ردّ فعل إيجابيّ في حالات سلبيّة.

عالمنـا يعمل على مبـدأ المنافسـة، وهذا هـو السبب خلف عـدم غياب التحدّيات والاستفزازات عن أيّة حالة؛ فلا يمكن لعالمنا أبدًا أن يكون خاليًا منها. إنّ العلاج الوحيد لذلك هو رفض الرضوخ للاستفزاز حتى في الحالات الاستفزازيّة. وعليه، فإنّ السّلام هو نتيجة لهذه الأخلاق أحاديّة الجانب.

لا يمكن أنْ نجد شيئًا جاهـزًا في هذا العالم؛ فكلّ شـيء لا بدّ أنْ يخضع لعمليّة التحويل، وهذا هو السبب في أننا لا يمكن أبدًا أنْ نجد السّلام الجاهز. هنا يجب علينا أنْ نستجمع ما نملك من الحكمة لتحويل اللاسلام إلى سلام، وبذلك فقط نستطيع امتلاك السّلام. وتمامًا كما ينطبق هذا المبدأ على حياة الفرد، فإنّه ينطبق أيضًا على المستويين: الوطنيّ والدوليّ.